تونس
الفكر
العدد رقم 3
1 ديسمبر 1961

الالتـزام واللا التزام في الادب العـربي الحـديث

بقلم بدر شاكر السيـاب

ـ 1 ـ الادب عـامـة :

ليس موضوع الالتزام واللا التزام فى الادب بصورة عامة وفى الشعر بصورة خصة بالموضوع الجديد · لقد عرفه القدماء وان عرفوه تحت اسمين آخرين غير الالتزام واللا التزام ، وبحدة أخف من الحدة التى اخذتها الدعوة الى الالتزام · و لانعدو الحق اذا قلنا ان نصيب « الالتـزام » القديم من الانسانية والشمول اكثر من نصيب الالتزام الذى نعرفه اليوم · كن الشعر ـ وبالتالى الادب بكل فنونه ـ ينقسم الى ادب موضوعى ـ وهو ما يقابل الادب الملتزم ـ والى ادب ذاتى ـ وهو ما يقابل الادب غير الملتزم ·

والحق ان كبار الشعراء ظلوا ـ حتى اواخر القرن السابع عشر ـ ادباء ملتزمين اى موضوعيين وفى وسعنا ان نعدد من الاسماء ما يثبت ذلك ابتداء بهوميروس وصوفوكليس واسخيلوس من الاغريق فمروا بشكسبير وجونسون وراسين وكورنى وامرىء القيس وطرفه بن العبد والمتنبى وكثير من الآخرين·اما الشعر العربى فلم يعرف الدعوة الى الالتزام او التملص منه الا فى فترة متاخرة كان النقاد العرب القدامى يقسمون الشعر الى ابواب او « فنون » كالغزل والحماسة والمديح والهجاء والرثاء وسواها · ولم يكونوا ليفضلون اى « فن » من هذه الفنون على سواه · ان الشاعر العربى نشأ ـ اول ما نشأ ـ ملتزما دون ان يدعوه احد الى ذلك · واذا كان الشعر الجاهلى او لما وصلنا من الشعر العربى القديم فقد كان الشاعر الجاهلى لسان القبيلة ، تغضب فيعبر عن غضبها ، وتحزن فيصور حزنها ، وتتقاعس اذ يعتدى عليها فيثير الحماس فى نفوس ابنائها ويدعوهم الى الثار والدفاع عن كرامتهم · على انه لم يكن كهفا اصم يردد ما يتناهى اليه من اصوات ، وان كانت عواطفه مشدودة الى عواطف قبيلته · كان يحكم عقله ووجدانه فيما يعرض له من امور، فحين شبت الحرب الطاحنة بين عبس وذبيان وطغت قعقعة السلاح على صوت العقل فما يسمع · ارتفع صوت الشاعر زهير بن ابى سلمى يشجب الحرب ويبارك السلام الذى كان قد حل لتوه :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمو
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثقالها
وتلقح عشارا ثم تنجب فتتئم

وحين جاء الاسلام فرض الدين الجديد الالتزام على شعرائه -رضا وان لم يأمر بذلك صراحة • فقد اصبح الشاعر المسلم ـ والدين فى اول جدته ـ يرى حرجا فى التغـزل باخته المسلمة او فى هجـو اخيه المسلم او فى التعالى بنسبه على انسابه الآخرين • فصار لزاما عليـه ان يسخر فنه الى الدعـوة الجديدة ، يمدح الرسول ويصف حروبه ويهجو اعاديه • لذلك اصاب الشعر فى صدر الاسلام ذلك الركود الذى اصاب الادب الروسى بعد الثورة البلشفية ، حين فرضت الدولة على الادباء مواضيع بذاتها بل ووضعت لهم مخططات ادبية وطلبت اليهم ان يبعثوا الحياة فيها •• وبعثوا فيها لا حياة وانما ما يمكن ان تبعثه الآلة فى الدمية الميكانيكية من حركة • غير ان حدة الوازع الدينى ما لبث ان خفت ، واصحاب ابناء المدن رغدا من الحياة ونعيما فى العيش فانطلقوا يفسقون ويمجنون واذا شعراء كعمر بن ابى ربيعة وغزله المتهتك وكالاخطل وخمرياته وكجرير والفرزدق وما دار بينهما من هجاء مقذع يظهرون فى المدن العربية الجديـدة ، واصيب سكان البوادى بخيبة امل شديدة وحرمان من نعم الحياة •• فاذا هم متقشفون زاهدون ، واذا شعراؤهم يعبرون عن حرمانهم من المناصب والنعم والثروات عن طريق الغزل العذرى الذى ما فيه غير التوجع والتشكى وسكب الدموع • غير ان الشعر العربى لم يعدم شعراء يؤيدون هذا الفريق السياسى او ذاك : الامويين او الهاشميين، ويعبرون عن ميولهم السياسية بشعر يستحق ان يوضع فى المرتبة الاولى من مراتب الشعر السياسى •

ورغم ما قد يبدو لاول وهلة من استقلال شخصية الشاعر العربى فى العصر العباسى وانصرافه الى التعبير عن شؤونه الخاصة ، لم يكن ابو نواس ولا العباس بن الاحنف ولا مسلم بن الوليد كل الشعراء العباسيين• والحق ان هؤلاء الشعراء خرجوا عن خط الشعر العربى ، اى عن موضوعيته والتزامه ، لانهم كانوا كلهم او جلهم على الاقل من الاقطاب الفكريين للحركة الشعوبية التى تقمصت صورا شتى : فهى المنادية بانصاف الفقير والغاء الفروق بينه وبين من هم احسن منه حالا • وباباحة النساء بين رجال المجتمع دون تفريق ، تارة ، والمنادية تارة اخرى

بان : « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » او بان الفرس كانوا اصحاب حضارة ومدنية ولم يكن العرب الا بدوا ارباب شويهة وبعير • وقد امتدت هذه الحركة الشعوبية ـ بكل وجوهها : السياسية والفكرية والدينية ـ الى العصر الحاضر • فقام شاعر يدعى انه شاعر « التقدمية » فى العراق يخاطب القوميين من ابناء العراق مفتخرا عليهم بسلمان الفارسى ••• ويقول :

سلمان اشرف من ابيكم كعبة
وعصام ما عرف الجدود عصام

لقد ظل الشاعر العربى فى العصر العباسى يسلك ذات النهج الذى سلكه الشعراء العرب من قبله غير خاص عواطفه الذاتية الا بالنزر اليسير ، ومفتعلا التعبير عنها فى اغلب الاحايين ، ابو تمام والمتنبى والمعرى هم خير من يمثلون هذا الاتجاه الموضوعى للشعر العربى فى العصر العباسى •

وفى عصر الانحطاط الفكرى ، اصبح هم الشاعر العربى ان ياتى بالجناس او الطباق المستظرف ، وان يكتب قصائد ذات قواف مستعصية ليثبت براعته اللفظية لا اكثر • هذه الفترة من تاريخ الشعر العربى تشبه الى حد ما الفترة التى مر بها الشعر الانكليزى فى اواخر القرن السابع عشر الى اواخر القرن الثامن عشر حيث ظهرت تباشير الحركة الرومانتيكية على يد توماس غراى وكوبر وسواهما • وما لبث الشعر العربى ان شق عنه قشور البذرة التى كانت تخبئه دفينا تحت الارض • ولاح فى سمائه شعراء كالبارودى وحفنى ناصف ، لم يختلفوا فى وجهتهم الشعرية عن الاتجاه العام للشعر العربى ، كانوا شعراء « ملتزمين » الى اقصى حدود الالتزام التى كان يمكن ان توجد فى تلك الحقبة التاريخية •

واستعاد الشعر العربى على يد احمد شوقى كامل رونقة السابق واتجاهه الموضوعى • ما كانت لتمر من مناسبة قومية او تقام من حفلة وطنية الا وارتفع صوت شوقى وصوت حافظ وصوت خليل مطران مجلجلا فيها •

قد يعترض معترض فيقول : اترى فى تحول الشعر العربى الى شعر مناسبات استعادة لاتجاهه الموضوعى • ولرد هذا الاعتراض يجدر بنا أن ندرس تلك الحقبة التاريخية وندرس اتجاهاتها السياسية والاجتماعية • ولا يتسع مجال هذه المحاضرة الى اكثر من اشارة عابرة الى بعض تلك الظروف • لم يكن الشعر ولا حتى السياسة قد نزلت الى الصعيد الشعبى بعد واذا صح ما يقال من ان الشاعر الملتزم قد شد اعصابه الى اعصاب الجماهير فراحت حركة طفيفة من هذه

تثير رجات عنيفة في اعصاب الشاعر ، فيما كانت اعصاب الجماهير لتتحرك ان لم تحركها هزة من الطبقات العليا او الطبقة الوسطى بتعبير اصح . ولم يكن في وسع الشاعر ان ينتظر رجة الوحي من انتفاض للجماهير وحركة لها . كان الشاعر هو الذي يحرك الجماهير وما كانت الجماهير لتحرك الشاعر . وكانت الاحتفالات التي تقام في المناسبات الوطنية تهيىء للشاعر الفرصة المناسبة لـ « امتياح » المشاعر من اعماق نفسه ، كما يمتاح الزارع الماء من بئر ارتوازية تحفر له . كان عليه ان يمتاحه فلم يكن ليتدفق كما يتدفق من نبع غزير .

وفي اواخر ايام شوقي ظهرت في عالم الشعر العربي حركة جديدة ، لقد تأثر شعراء تلك الحركة بما قرأوه من الشعر الرومانتيكي الانكليزي والفرنسي الغرامي منه وشعر الطبيعة والشعر الذي يعبر عن خوالج نفس الشاعر من حزن وفرح وشك او ايمان ويأس او امل . لعل اولئك الشعراء (ونستطيع تسميتهم شعراء مجلة ابولو) لم يطلعوا ـ او لم يعجبهم على الاقل ـ من شعر شللر الا على القبرة والسيرنادا الهندية ودعوة ولم يطلعوا على آثاره الاخرى الاكثر اهمية او لم تعجبهم على الاقل ، من بروميثوس طليق الى ثورة الاسلام كما لم يقرأوا ـ او لم تعجبهم ـ قصائد بايرون التي غنى فيها كفاح اوروبا الثائرة من اجل حريتها . اما الموضوعية التي عرفوها فهي موضوعية الشاعر احمد زكي ابي شادي رائد تلك الحركة وابيها التي سماها « بالشعر التصويري » حيث كان يؤلف قصيدة عن كل لوحة او صورة مرسومة تعجبه . غير ان شعر بعض من اولئك الشعراء لم يخل من بعض المشاعر الوطنية والقومية والشعبية . ولم تستطع تلك الحركة الشعرية الاستمرار في عزلتها عن الاحداث السياسية والوطنية التي كانت تجري من حولهم في الوطن العربي . فما لبثت مجلة ابولو ان احتجبت وما لبث شعراؤها ان تفرقوا . ورغم النجاح الذي صادفه بعضهم ـ من حيث الشهرة او الحظوة عند النساء ـ فقد طمحوا في أواخر ايامهم الى ان يحلوا محل شوقي، شاعر المنابر والحفلات والمناسبات الوطنية . حتى ان الشاعر المصري علي محمود طه اصدر ديوانا جمع فيه قصائد تختلف عن بقية شعره ، من حيث المواضيع والاتجاهات هو (شرق وغرب) الذي صور فيه بعض البطولات العربية والاسلامية . واصدر محمود حسن اسماعيل ديوانا سماه « الملك » قصره على مدح فاروق ملك مصر السابق .

وحين قويت الحركة الشيوعية في الوطن العربي في اعقاب الحرب العالمية الثانية وصار في وسع الشيوعيين ان يصدروا مجلاتهم في عدد من العواصم

العربية • كمجلة الفجر الجديد التي كانت تصدر في القاهرة ومجلة ام درمان التي كانت تصدر في الخرطوم ومجلة الطريق التي كانت تصدر في بيروت وبعض المجلات والصحف العراقية التي لم تكن احداها لتعمر طويلا •• في ذلك الحين ظهرت نغمة جديدة كان الشيوعيون عازفيها ، تلك النغمة • هي الفن للفن او الفن للمجتمع • واصبح في وسع الشيوعيين بجماهيرهم الواسعة المهيئة اكفها للتصفيق وصحافتهم التي كانت تمولها مصادر مجهولـة ــ او معلومـة بأحرى ــ ان يرفعوا اى شعرور او متأدب ينضوي تحت لوائهم او يجاريهم على الاقل الى مرتبة ما كان ليصلها حتى نهاية حياته ، لو لم يرفعوه اليها • بل ان بعض الشعراء المبدعين بحق ، لم يستطيعوا الصمود امام ذلك الاغراء الشيوعي فانحرفوا مع التيار الاحمر ، مضحين بفنهم وانسانيتهم وبكل ما يحرص الاديب عليه • من اولئك الشعراء الشاعر اللبناني المبدع المرحوم الياس ابو شبكة والشاعر العربي ــ المصري آنذاك ــ عبد القادر القطر ــ والشاعر الفلسطيني ابو سلمى وآخرون وآخرون •

لقد بسط الشيوعيون مسألة الالتزام وعدمه او مسألة الفن للفن ــ بما في ذلك الادب ــ والفن للمجتمع تبسيطا اخفى جوهر القضية بل ومسخ معنى الادب الملتزم او الادب للمجتمع او الادب الواقعي •

في عام 1945 وكنت عضوا في الحزب الشيوعي العراقي دفع الى الحزب بكتاب مؤلف باللغة الانكليزية عنوانه « الماركسية والفن » ، لقد طرح مؤلف الكتاب مسألة الفن للفن او الفن للمجتمع ، بالشكل الآتي :

كتب المؤلف الشيوعي :

« يقول دعاة الفن للفن : اذا رسمت بيضة او بيضات في عش ، ثم نجحت في تلوين ما رسمت •• فذلك يكفي • المهم ان تنجح في رسم ما تريد رسمه وفي تلوينه »

ويرد المؤلف الشيوعي على ما زعم من حجة دعاة الفن للفن • اننا نقول لهؤلاء اذا كان المهم هو ان تنجح في رسم ما تريد رسمه وفي تلوينه فلماذا لا ترسم، بدلا من العش والبيضة ، عائلة كادحة يبكي اطفالها مـن الجـوع ، وتنجح في رسمها وفي تلوينها ؟

ولما كان موضوع المحاضرة هو الالتزام واللا التــزام في الشعر وليس في الفن بصورة عامة ، أرى من الافضل ان اتكلم عن الموقف الشيوعي من الشعر الملتزم او الشعر الجماهيري او النضالي كما يسمونه •

تعتقد الشيوعية ان ليس هناك من فلسفة صحيحـة غير الفلسفـة المادية الدايلكتيكية وان ليس هناك من حلول صحيحة ، لاية مشكلة ، غير الحلول

الشيوعية • وعلى هذا الاساس يحرم على الشاعر الشيوعي – او اى شاعر يريد ان يرضى الشيوعيون عنه – الاتيان بأية فكرة غير مستمدة من الفلسفة الشيوعية او الاتيان باى حل غير الحلول الشيوعية التى تقررها كتب ماركس وانكلز ولينين وستالين بصورة عامة وتقرر تفاصيلها وجزئياتها منشورات الحزب الشيوعي فى بلد معين •

اليكم ابياتا من قصيدة كتبها شاعر شيوعي عراقى عن القضية الفلسطينية ، قبل ان يتخذ الاتحاد السوفياتى موقفه المعلوم منها :

فلسطين لك المجد
وللمجد فلسطين
من الشرق الى الغرب
تحييك الملايين

∴

على مهلك يا شيخ الولايات على مهلك
ذر الذرة واستعمل لنا الذرة من عقلك

الى آخر هذا النظم الركيك الذى لم يستطع ان يرتفع حتى الى مستوى الشعر الردىء • وللشاعر ذاته بيت حظى بدوى من التصفيق والهتاف قل ان يحظى به بيت شعر • يقول من قصيدة له القاها بمناسبة ذكرى الوثبة – وهو الاسم الذى اطلقه الشيوعيون العراقيون وتبناه بقية ابناء الشعب على مظاهرات الشعب العراقى التى احبطت معاهدة بور تسموت واسقطت حكومة صالح جبر عام 1947 :

فالعراق الحر فى وثبته
يحسن الوثبة صيفا وشتاء

ولم يقتصر الشيوعيون العرب فى تطبيق مقاييسهم الماركسية على الشعر العربى المعاصر ، بل تعدى بهم الامر ذلك الى الرجوع الى الشعر والادب العربيين القديمين وتطبيق مقاييس الواقعية الماركسية والادب النضالى عليهما •

كنا ذات مرة مجتمعين فى حلقة شيوعية ادبية ، حين اخذ اديب شيوعى يهاجم شكسبير ويصفه بشاعر «الرجعية والاقطاع» المتحدث عن الملوك والامراء والقواد لا عن العمال والفلاحين • وحين احتججت بان شكسبير مات حتى قبل ان يولد كارل ماركس ، اجابنى بان هناك الكثيرين من الشعراء والادباء

«التقدميين» الذين جاؤوا قبل ماركس· ولماذا نأخذ على هذا الشيوعي العراقي موقفه هذا وقد وقفت صحيفة الديلي وركر ـ جريدة الحزب الشيوعي البريطاني هذا الموقف ذاته من شكسبير ، وهاجمته لانه لم يعبر عن مصالح البروليتاريا وامانيها ·

وحين رفع الشيوعيون شعار السلام العالمي راح الادباء والمتأدبون منهم ينقبون في الادب العربي القديم عما قيل في شجب الحرب والدعوة الى السلام· وكتب اديب شيوعي عراقي ، يسمونه اديبا كبيرا ، مقالا عن المتنبي وقصيدته في شعب بوان ، جاعلا نقطة انطلاق بيت المتنبي :

يقول بشعب بوان حصاني
امن هذا يسار الى الطعان

وخلص من هذا الى القول الى ان المتنبي كان مروج حرب بينما كان حصانه نصيرا للسلام · ورغم انني كنت شيوعيا آنذاك فقد علقت على مقالته قائلا بان حصان المتنبي قد وقع على نداء استوكهولم بحافره ·

ازاء هذه الحملة الشيوعية العنيفة ، لم يستطع اغلب الشعراء العرب صمودا فراحوا يكتبون شعرا نضاليا على نمط ما يكتب الشيوعيون واصبح الفرق الوحيد بين الشعراء الشيوعيين وبين اغلب الشعراء الملتزمين من غير الشيوعيين هو اختلافهم في بعض الكلمات التي يستعملونها· فبينما يردد الشاعر الشيوعي كلمات « السلام » و « الكادحين » و « الراية الحمراء » ، يردد الشاعر غير الشيوعي كلمات « العروبة » و « الجهاد » و « المجاهدين » ·

على ان كلمة « التزام » لم تستعمل في النقد العربي بمفهومها الحالي ، الا بعد ان استعملها جان بول سارتر · وجاءت دعوة سارتر هذه الحجة لغير الشيوعيين بان الادب الواقعي والادب الملتزم ليسا وقفا على الشيوعيين · وكان الشيوعيون قد قطعوا السبيل على النقاد غير الشيوعيين حين ادعوا بكل شاعر او اديب مكافح ، غنى الحرية والعدالة وتحدث عن البؤس والفقر · فادعوا مثلا بالشاعر الاسباني لوركا بل واوشكوا ان يدعوا بالشاعر الانكليزي كولردج ·

ان الدعوة السارترية والنكبات التي اصابت العرب من النكبة الفلسطينية حتى الحرب الجزائرية الراهنة ازالت الفروق بين نوعين من الادب الملتزم بصورة عامة والشعر الملتزم بصورة خاصة : الشيوعي وغير الشيوعي · ان قيام الاحزاب في البلدان العربية وما يؤدي اليه قيامها من اجتماعات ومهرجانات ومظاهرات قد شجع الشعر المنبري ، شعر المناسبات ·

ولعل استفحال خطر الشعر المنبرى كان من جملة العوامل التى ادت الى ميلاد حركة الشعر الحر واشتدادها·لكن الشعر الحر لم يسلم من استغلال الشيوعية والاتجاهات الحزبية الاخرى له · بل انه سهل الطريق على كثير من المتشاعرين الذين راحوا يرصفون كلمات معينة مما يحويه قاموس الشيوعية السياسى والاقتصادى ، ويلتقطون الشعارات التى يهتف بها المتظاهرون او التى ينقشونها على شعاراتهم ثم يؤلفون من كل ذلك شيئا يسمونه شعرا نضاليا ، وما هو بالشعر ولا بالنضالى ، باية حال من الاحوال ·

وفى وسع من يريد الشواهد على ذلك الرجوع الى دواوين الشعر الشيوعية التى صدرت فى الفترة الاخيرة ولعل ديوان عبد الوهاب البياتى المسمى « كلمات لا تموت » آخر ما صدر من تلك الدواوين ·

ولا بدلنا ، فى هذا المجال ، من الاشارة الى ما كان للشاعر الانكليزى الكبير ت · س · اليوت وخاصة فى قصيدته « الارض الخراب » من اثر كبير على الشعر الملتزم فى الادب العربى الحديث ، الشيوعى منه وغير الشيوعى ، والردىء منه والجيـد على السـواء ·

لعلى لا اغالى اذا قلت ان المدنية الاوروبية الحديثة لـم تهج هجاء اعنف ولا اعمق من الهجاء الذى وجهه ت· س· اليوت اليها فى قصيدته «الارض الخراب» على كثرة ما هجا الادباء والشعراء الشيوعيون الجانب الراسمـالى مـن المدنيـة الاوروبية المعاصرة · وقد لقيت « الارض الخراب » من اهتمام النقاد ودراساتهم ما لم تلقه أية قصيدة اخرى·ان الشيوعيين يعتبرون كل شاعر يهجو المدنية الحديثة لاسباب غير اسبابهم ، ومنطلقا من وجهة نظر غير وجهة نظرهم ، عدوا تجب محاربته ،ولم يال الشيوعيون جهدا فى محاربته · بل ان مجلة « ساينس اند سوسيتى » الشيوعية الاميركية نشرت مقالا عن ت · س · اليوت · تفت فيه عنه حتى صفة الناظم المجيد فى نظمه ·

غير ان الشيوعيين مصابون ، وخاصة فى الناحية الثقافية ، بعقدة الشعور بالنقص ، وان شعراءهم ـ ليشعرون فى قرارة انفسهم ـ بالتضاؤل امام جبروت الشعر الاليوتى · وقالوا لانفسهم ، ان تكتيك اليوت هـو العظيم امـا افكاره فرجعية ، استعمارية · وعلى هذا اخذوا يقلدون تكتيك ت · س · اليوت مبدلين محتواه بمحتوى « تقدمى » كما يسمونه ·

لست ادرى اذا كان الشعراء الشيوعيون فى الغرب قد نجحوا فى تقليد اليوت او لم ينجحوا · اما الشعراء الشيوعيون العرب ، فقد قرأوا اليوت دون

ان يفهموه • كل ما عرفوه عنه انه يضمن قصائده ابياتا لشعراء آخرين فرنسيين او المان او انكليز • اما ما الذي يختفي وراء ذلك التضمين من عمق، وما في ورود ذلك التضمين في موضع معين من تناقض يقصده الشاعر مع النص السابق له او اللاحق • فذلك ما لم يفهموه • عرفوا عنه انه يضمن شعره ابياتا لشعراء آخرين وانه يستعمل اللجهة الشعبية احيانا • وانه قد يلتقط حديثا سمعه في مقهى ، او حوارا سمعه في الشارع ، فقلدوه في ذلك • فاصبحت قصائدهم كانها جلباب متسول مرقع برقع مختلفة الالوان • هنا بيت يتحدث عن الربيع والخضرة وبعده مقطع من اغنية شعبية عن موت الكلاب من الجوع وبعده هتاف التقطه الشاعر من مظاهرة الى آخر هذا الخلط العجيب •

لكن هناك فئة اخرى من الشعراء العرب الشباب قرات اليوم وفهمته وتأثرت بروحه وتكتيكه على السواء لقد رأى هؤلاء الشعراء في « الارض الخراب » اعنف هجاء للمجتمع الراسمالي يتضاءل ازاءه كل ما هجاه به الشعراء الشيوعيون رغم ما في هجائهم من اقذاع وحقد ، ورأوا فيها ، من جهة اخرى ، هجاء للمجتمعات التي تخلت عن القيم الانسانية الحقة ، القيم الدينية الرفيعة وهو هجاء ينطبق لا على المجتمع الراسمالي وحده وانما ينطبق على المجتمع الاشتراكي – في الدول الشيوعية – ايضا • بل وينطبق الى حد ما على المجتمعات المريضة المتخلفة ومنها المجتمع العربي • لقد رأوا كيف استطاع شاعر غربي ان يفيد من رموزهم ، كرمز تموز واوزيريس فنبههم الى امر كانوا عنه غافلين •

وساعدت الظروف السياسية التي كانت البلدان العربية تمر بها ، حيث الارهاب الفكري وانعدام الحرية الى اللجوء الى الرمز ، يعبرون بواسطته عن تذمرهم من اوضاع بلادهم السياسية والاجتماعية على السواء وعن املهم في انبعاث جديد ينتشلها من موتها • هؤلاء الشعراء ملتزمون ايضا لكنهم يختلفون عن الشعراء الشيوعيين – وكلهم ملتزمون طبعا – في ان الالتزام الشيوعي مفروض على الشاعر من الخارج ، اما التزام هؤلاء الشعراء فنابع من داخلهم • وهم لا يتخلون عن الفن ولا يهبطون بشعرهم عن اعلى مستوى يستطيع كل شاعر منهم بلوغه ، في سبيل ان يفهمهم المناضل شخنوب ار الرفيق حسن الركاع او عجرش الزبال •

وتعرضت هذه الفئة من الشعراء الملتزمين التزاما حقا ، الى هجوم من اليمين واليسار على السواء فهي في نظر اليسار فئة تخدم مصالح البرجوازية والامبريالية ولا تفكر بالجماهير • وهي في نظر اليمين المتطرف ، فئة تحاول تحطيم الشعر العربي بالخروج عن اوزانه وطائق نظمه المتوارثة مدفوعة الى ذلك بدوافع شتى

اعظمها ما يغدقه عليها الاستعمار من مال ، وآملها ضعف ادواتهم الشعرية وقلة حصيلتهم من الالمام بالادب العربى القديم ٠

انه لامر مؤسف حقا الا يبلغ الشعر العربى المعاصر مستوى الواقعية كما عرفها الشاعر الانكليزى الكبير والناقد المبدع الموهوب ستيفن سبندر فى محاضرة له عنوانها « الواقعية والفن » ٠ وخلاصة تعريفه ذاك هو أن الواقعية الحقة هى تلك التى تمكن الشاعر او الفنان من تحليل مجتمعه تحليلا يحوى اكبر قدر ممكن من الحقائق ٠ ولا يهم ، بعد ذاك ، من أية وجهة نظر انطلق ٠ ولكن الحد الذى بلغه الشعراء التموزيون ـ فى الشعر العربى الحديث ، كان يبشر بمستقبل لامع لهم او للشعراء الذين سيسيرون على آثارهم على الاقل ٠

لكن يبدو ان الشعراء التموزيين اصيبوا بخيبة امل ٠ فاقلعوا عن الالتزام كانهم اتفقوا على ذلك ، وان لم يتفقوا ٠ يبدو هذا الاقلاع عن الالتزام والانصراف الى المشاكل الذاتية والشخصية بل وحتى افتعالها ، فى الآثار الاخيرة لاولئك الشعراء ٠ يتضح لنا ذلك فى ديوان يوسف الخال الاخير « قصائد فى الاربعين » وفى قصائد صلاح عبد الصبور الاخيرة ، وفى الديوان المخطوط الذى يضم آخر ما كتبه ادونيس وارى ذلك فى نفسى انا شخصيا ، فكاننى تخمت من الالتزام فانا اتفلت منه ٠

ولا اغالى اذا قلت ان نهاية الالتزام الحق فى الشعر العربى المعاصر ستكون حين ينتهى هؤلاء الشعراء منه ٠

اما من هو المسؤول عما اصابهم اهى مجتمعاتهم ام حكوماتهم ام الاوساط الادبية المختلفة فذلك ما نتركه للمؤرخين الذين سيكون لديهم الكثير مما يقولون ٠

ولعل ما يعاب به الادب العربى ، غلبة الشعر على فنون الادب الاخرى ٠ ما زال الشاعر يحظى بالمكانة الاولى بين ادباء العرب ٠٠ وما زال كل اديب عربى سواء أكان كاتب قصة ام مقالة ام كان ناقدا ، يطمح ان يصبح شاعرا او يتمنى ذلك فى قرارة قلبه على الاقل ٠ وعلى هذا الاساس فان المقاييس السائدة فى الشعر فرضت نفسها على فنون الادب الاخرى ٠ ما جدوى كتابة قصة او رواية عن عواطف النفوس من حب وبغض وحسد فى حين يكتب شوقى وحافظ والرصافى قصائدهم عن دنشواى ، وعن الدستور ٠

لهذا كله كان الاتجاه الواقعى فى القصة اول ما عرفه الادب العربى منذ اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ٠

فى تلك الفترة كان لا بد من ظهور رواية (زينب) للدكتور محمد حسين هيكل التى استمد وقائعها من المجتمع الفلاحى · ولم يكن بد من ان يصدر طه حسين « الايام » مدونا فيه ذكريات طفولته فى الريف المصرى ومجتمع الفلاحين ، ثم « دعاء الكروان » ··

حتى حركة الترجمة تاثرت بالذوق الادبى الذى كان سائدا آنذاك · لقد وجد حافظ ابراهيم انه يؤدى واجبا شبيها بالواجب الذى يؤديه حين يكتب الشعر ، اذا هو ترجم رواية فكتور هوغو (البؤساء) فاضطلع بترجمتها بالرغم من عدم تضلعه باللغة الفرنسية · اما محمود تيمور وهو من رواد القصة القصيرة فى الادب العربى الحديث ، فهو تلميذ أمين للكاتب الفرنسى غى دى موباسان ، وبلغ محمود تيمور ذروة التمسك بالواقع والالتزام فى روايته (كليوباطره) فى خان الخليلى التى انحدر الحوار فيها الى مستوى التعليقات السياسية على الوضع العالمى والصراع بين الدول الديموقراطية والمحور · لكنه لم ينج من التأثر بالاتجاه الرومانتيكى كما يفهمه اكثر الادباء العرب فى كثير من آثاره · ان الرومانتيكية تعنى لدى اغلبية الادباء العرب وقرائهم التحدث عن البحث والجمال والطبيعة ولا شيء اكثر ·

يقول رئيف خورى فى كتابه (الفكر العربى الحديث) متحدثا عن تلك الواقعية المبكرة « ان ادباء العرب ومفكريهم وجدوا انفسهم امام قيم ومثل ومعقولات جديدة شاعت على الالسنة والاقلام ابان الثورة الفرنسية وتناقلتها الافواه والقراطيس فى الشرق العربى ، فقد طفق الناس يتحدثون عن الوطن والوطنية والامة والقومية والحرية والمساواة والحقوق الوطنية كنتيجة لتشبع اعلام الفكر العربى بمبادىء الثورة الفرنسية امثال أمين الريحانى واديب اسحاق حيث وجدوا فى تلك المبادىء ضالتهم وعرفوا فيها الدواء الناجع لادواء الشرق المزمنة · »

لكن الاتجاه الواقعى فى القصة سرعان ما اندحر امام الاتجاه الرومانتيكى الذى يمكننا القول بان مصطفى لطفى المنفلوطى كان رائده الاول او من اوائل رواده على الاقل ·

وظل الاتجاهان الواقعى والرومانتيكى فى القصة متعايشين دون ان يظهر من اى الاتجاهين اثر شامخ حتى طلع نجيب محفوظ بروايته الرائعة (خان الخليلى) التى كانت فاتحة عهد فى القصة الواقعية الرائعة ·

وفى خلال تلك الفترة لم تخل المكتبات العربية ولا الصحف من قصص واقعية

على الطريقة الشيوعية امثال قصص ذو النون ايوب وروایاته ، او من ترجمات للقصص والروايات الشيوعية كرواية « الام » لمكسيم غوركي التى تعاون على ترجمتها عدد من شيوعيي العراق عام 1934 ، وحوالى ذلك ٠

لقد سمى اديب شيوعي آخر ذوالنونايوب ب (المقاص) مشتقا الكلمة المزج بين المقالة والقصة ٠ ورغم ان مقاييس الادب الشيوعي ترى فى القصة والرواية ارقى الفنون الادبية ، متحمسة لها اكثر حماسها للقصيدة او المسرحية لسهولة نشر الافكار الشيوعية عن طريقهما لم يستطع ذلك المفهوم آن يلقى رواجا فى المجتمعات العربية ٠ ذلك ان الطبقة الكادحة وهى العمود الفقرى لكل حركة شيوعية اشد طبقات المجتمعات العربية جهلا ٠ ان تسعة وتسعين بالمائة من الفلاحين والعمال العرب اميون ، ولا يمكن ان يقرأوا قصة او رواية فتتسرب المفاهيم الشيوعية آلى انفسهم عن طريقها ٠ كما ان من الصعب على المنظم الحزبى او رئيس الخلية الشيوعية ان يقرأ رواية « الام » لمكسيم غوركى مثلا ، على اعضاء خليته ٠

اما الشعر فامره ايسر ٠ فى وسع الشاعر الشيوعى ان يلقى قصيدته فى المحلات والاجتماعات، وفى وسع المنظم الحزبىاو رئيسالخلية الشيوعية آنيتلو قصيدة « جماهيرية » على رفاقه فى اجتماع حزبى آو جلسة حزبية ٠

واذا خضع كثير من الشعراء الشيوعيين لمقاييس النقد الشيوعى فان اشباح دستويفسكى وجيمس جويس وفولكنر ظلت هى المسيطرة على نفس القصاص الشيوعىوهو يكتب اقصوصته أو روايته ٠ نجد ذلك واضحا للغاية فى انتاج القصاص العراقى عبد الملك نورى ، المحسوب على الشيوعيين ٠ انه يؤكد ، اغلب الاحيان ، على اهمية المونولوج الداخلى وتهاويل اللاوعى ٠ ولعل هذا من بين الاسباب التى ادت الى عدم صعود نجمه فى فلك الادباء الشيوعيين العرب ٠

وحين ارتقى مد الحركات الشيوعية فى البلاد العربية ، فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، عمت جو الادب العربى موجة من القصص الواقعى او « الملتزم » واذا ما تذكرنا الطريقة الشيوعية فى كتابة القصة القصيرة او الرواية ، ادركنا اى نوع من القصص والروايات هو الذى عم وساد ٠ لعل انجح ما صدر من تلك القصص والروايات ذات الطابع اليسارى ، بل هو انجح بالفعل ، كتاب « المعذبون فى الارض » للدكتور طه حسين والقصص التى نشرها مارون عبود فى مجلة الطريق الشيوعية فى لبنان ٠

وما لبث جـان بول سارتر ان اطلق دعوته الى الالتزام فوجدت تلك الدعوة صدى لا فياوساط الادب الشيوعى ـ الذىهو ملتزم منذ البدء ـ وحسب وانما فى اوسط الادب القومى ايضا ٠ فكثرة القصص التى تتحـدث عن النكبـة الفلسطينية وعن كفاح الجزائر ٠ ان احسن ما كتب فى هذا الموضوع دون منازع هو قصتان قصيرتان كتبتهما السيدة سميرة عزام ، الاديبة الفلسطينية ونشرتا فى مجموعتها «٠٠٠ وقصص اخـرى» وتليهما فى الجـودة بعض القصص التى كتبها الدكتور عبد السلام العجيلى ، حول موضوع فلسطين ذاته ٠

اما الروايات التقدمية الملتزمة فلعل « قصر الشوق » للكاتب العربى الكبير الاستاذ نجيب محفوظ احسن ما صدر منها ٠ وقرأت ، وسمعت كثيرا من الثناء على رواية الفها الاستاذ مطاع صفدى « من ادباء الاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة وسماها « جيل القدر » لكننى لم اقرأ الروايـة ذاتهـا غير انى سمعته من ناحية أخرى يهاجم على تلك الرواية من قبل بعض الفئات الحزبية ٠

هذا عن القصة ٠ اما عن المقالة فلم يرتفع الى مستوى الادب الا القليل من المقالات الملتزمة ٠ ولعل مقالات عمر فاخورى ـ وهو شيوعى ـ من احسنها ٠ ويجب ان لا ننسى بعض المقالات التى كتبها الدكتور طه حسين وعالج فيها كثيرا من الامور السياسيـة والاجتماعيـة ٠

ولم يعرف العرب المسرحية الملتزمة التى ترتفع الى مرتبة الادب ٠ لقد الف الشيوعيون كثيرا من المسرحيات « الملتزمة » حسب مفهومهم للالتزام ـ لكنهم كتبوها باللغة العامية ٠

هذا هو الادب العربى الحديث فى التزامه وعدم التزامه ٠ يحتل الشعر مكان الصدارة منه وتقف المسرحية فى المؤخرة ٠ فيه نوعان من الالتزام : الالتزام الشيوعى وكلكم تعرفون ما هو « الالتـزام » عنـد الشيوعيين ٠ اولى بهم ان يسموه « الزاما » والالتزام القومىالحزبى وهو لا يختلف عنالالتزام الشيوعى الا فى بعض التفاصيل ٠ ثم الالتزام اللاشيوعى اللاحزبى ، النابع من نفوس الادباء لقد قدم ادباء هذه الفئة نماذج رائعة من الادب الملتزم لكنهم اندحروا فى المجتمع الذى يسيطر عليه التعصب الحزبى الى حد الجنون ٠